تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّى يكون حنان المربِّى .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهى : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَاخْفِضْ ﴾ : الخفْض ضد الرَّفْع .

﴿ جنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةٌ عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة فى الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذى يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقهم[1] الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذى يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام ، فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتى بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتى بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلَّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفى المقابل ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ،

---

(١) زقَّه : أطعمه بفيه (بفمه) . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق فى المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التى يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية فى سيرة الصِّدِّيق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّدِّيق اللين ورِقّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة فى الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لى يا رسول الله أضرب عنقه »[1] .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأى عمر ألاَّ يحاربهم فى هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، فى حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعونى عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْقَ إلا الزرع »[2] .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّدِّيق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبى بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر

(١) وقد روت لنا السنةُ طرفاً من هذا ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لى فيه أضرب عنقه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢/٧٤٤) كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجرأته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصِّديق - رضى الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكان الموقف هو الذى صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى :﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.. (٢٤) ﴾[الإسراء]

إذن : الذلَّة هنا ذِلَّة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تَطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء]

لأن رحمتك بهما لا تَفِى بما قدَّموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما رداً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحمهما ، وأنْ يتكفل سبحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بى حين ربيانى صغيراً . أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ.. (١٩٨) ﴾ [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِى ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُربٍّ للإنسان فى هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربِّيه غير والديه لأىِّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربَّاك

غير والديك فلهما ما للوالدين من البرِّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن ربَّى غير ولده ، ولا سيما إنْ كان المربَّى يتيماً ، أو فى حكم اليتيم .

وفى ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه فى تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ(١) غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطقيٌّ مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطقيٌّ لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق ؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر فى مكة التى صادمتْ الإسلام وعاندته ، وضيقتْ عليه ، بل ظهر فى

---

(١) الأوابون : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٧٥] .

المدينـة التي احتضنتْ الـدين ، وانساحت به فى شـتى بقاع الأرض ، وقد يتساءل البعض : كيف ذلك ؟

نقول : النفاق ظاهرة صحـية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنافَق إلا القـوى ، والإسـلام فى مكة كان ضـعـيـفاً ، فكان الـكفار يُجـابهـونه ولا ينافقونه ، فلمـا تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقـويتْ شوكته ، وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقـد ذَمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى فى حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[2] الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وكأنه جعل الإيمان مَحَلاً للنازلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3] .. (٩) ﴾ [الحشر]

فإنْ قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

---

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون . وقال ابن جريج : ماتوا عليه ، عبد الله بن أبيّ ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . [تفسير الدر المنثور للسيوطي ٢٧٣/٤] .

(٢) أى : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهـم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشيء . [لسان العرب ـ مادة : خصص] .

فالنفاق فى المدينة ظاهرة صحية للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً فى المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبِرِّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون فى الإيمان بالله ، يكون كذلك فى برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حِرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله فى نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ أى : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندى سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه .

وقوله : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

أىْ : إنْ توفّر فيكم شرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غير ذلك وكنتم فى أنفسكم غير صالحين غَيْر

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا في عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) ﴾ [الإسراء]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .

وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةً من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طوال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .

لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمْنه ، وليُثري جوانب الخير فيه .

ثم يُوسّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان » إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أنْ حنَّنه على والديه لفتَ نظره إلى ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) ﴾

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديْه صعَّد المسألة فحنَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ .. (٢٦) ﴾ [الإسراء]

﴿ حَقَّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حقاً للأقارب إنْ كانوا في حاجة ، وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

يُهادى أقرباءه ويهادونه . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ فى المجتمع روح التكافل الاجتماعى .

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاةً تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده ، كأنه سرقه ؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فمَنْ منع صاحب الحق من حقه ، فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك ، لأنهم فى بلاد ترف وغنى ، فتشدَّدوا فى هذه المسألة ؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها[1] .

لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال : لقد حلفتُ يميناً ، وأرى أن أكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم : لقد ضيَّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً : أو مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ؟ إنه يفعل ذلك فى اليوم لألْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص ؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثِّر فى رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت فى القرآن على معنيين :

الأول : فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

والحق المعلوم هو الزكاة .

---

(١) جاء فى كتاب المغنى لابن قدامة (٢/٤٣٥) فى حكم مانع الزكاة : « إن منعها معتقداً وجوبها وقدر الإمام على أخذها منه أخذها وعزره ولم يأخذ زيادة عليها فى قول أكثر أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك والشافعى و أصحابهم ، وكذلك إن غل ماله وكتمه حتى لا يأخذ الإمام زكاته فظهر عليه ، يأخذها وشطر ماله » .

أما الحق الآخر فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتى هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك فى المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذى تعطيه اليوم هو نفسه الذى قد تحتاجه غداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذى تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك فى المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ فى المجتمع ، وكذلك إنْ تركتَ أولادك فى عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم ،

ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و (المسكين) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..(٧٩)﴾ [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض فى تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطىء .

و ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ..(٢٦)﴾ [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإنْ كان منقطعاً فى الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب يَسَارٍ وَغِنىً ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يُوصّله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله فى وضع مذلّة أو حرج .

﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦)﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطى المحصول المرجو منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهى كثيرة فى مكان ، وقليلة فى مكان آخر ، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب فى موضع غير مناسب ؛ فهى قليلة فى مكان مزدحمة فى آخر فَيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال فى غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء فى غير ما يلزم ، فى حين يمسك فى الشىء الضرورى .

إذن : التبذير : صَرْف المال فى غير حِلّه ، أو فى غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهى عن التبذير هنا قد يُراد منه النهى عن التبذير فى الإيتاء ، يعنى حينما تعطى حَقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطى أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد فى عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذِّر فى الأمور الأخرى ، فالنهى هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة الّتى يُنفَق فيها المال فى غير ضرورة[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾

كلمة (اخ) تُجمع على إخْوة و إخْوان .

وإخوة : تدلّ على أخوّة النسب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى ـ عليهما السلام ـ وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أى أخوّة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً كان أو شراً ، فقد تدلّ على الاجتماع فى الخير ، كما فى قوله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) : « من أنفق ماله فى الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً فى حرام فهو مبذر ، ويُحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد » .

تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع في الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الإسراء]

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة ، ووُدٍّ واحد ، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إخْوَة) تدل على أُخُوَّة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أُخوَّة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخوينِ من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوانِ : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدي إلا أفخر الثياب وألينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة ، ثم بعد أنْ آمنَ تغيَّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلِّم الناس أمور دينهم[1] ، وفي غزوة أحد رآه رسول الله ﷺ يرتدي جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم »[2] .

---

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١٠٧/١) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه . لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

فماذا حدث بين الأخوين المؤمن والكافر ؟ وأيّ الصلات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لما دارتْ المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أسَرَهُ أحد المسلمين اسمه « أبو اليَسَر »[1] فالتفتَ إليه . وقال : يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك ، فأُمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليه « أبو عزيز »[2] وقال : يا مصعب ، أهذه وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخي دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

قوله : ﴿ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين فى صفة واحدة هى التبذير والإسراف ، فإنْ كان المبذّر قد أسرف فى الإنفاق ووَضْع المال فى غير حلّه وفى غير ضرورة . فإن الشيطانَ أسرف فى المعصية ، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً في ذاته ، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كَفَر وعمل على تكفير غيره .

---

(١) اسمه : كعب بن عمرو الأنصارى السلمى ، شهد العقبة وبدراً ، وهو الذى أسر العباس . قال المدائنى : كان قصيراً دحداحاً (سميناً) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٧/٢١٨) ترجمة رقم (١٢٤٣) فى الكنى] .

(٢) اسمه : زرارة بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، اتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . [الإصابة ٧/١٣٠] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ولنا أنْ نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله : ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء]

فالله تعالى فى ذهنك ، وتبتغى من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسعَته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا إذن الغرضُ من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة ، وأنت لا تملكها فى هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع ، وتستحى منه ، فما يكون منك إلا أنْ تتوجّه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك ، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنَّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم ، وليس

---

(١) سبب نزول الآية : قال زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد ، فكان يعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) .

عندك ما يسدُّ حاجتهم ، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ﴾ [الإسراء]

كما قال في موضع آخر في مثل هذا الموقف : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]

فحتى في حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ، ولا يجرح مشاعر السائل ، وأنْ يردّه بلين ورفق ، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل ، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة في مثل هذا الموقف لا يكفي فيها أن تقول : ما عندي ، فقد يتهمك السائل بالتعالي عليه ، أو بعدم الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التي تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيماني في قوله تعالى عن أصحاب الأعذار في الجهاد : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة[1] الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

(١) قال محمد بن كعب القرظي : كانوا : سالم بن عوف ، حرمي بن عمرو ، عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى ، فضل الله من بني المعلى ، عمرو بن عتمة ، عبد الله بن عمرو المزني .

جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليمدهم بالعدة والعتاد ليخرجوا في سبيل الله فقال لهم : ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] . فأنزل الله عذرهم في كتابه فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفى المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذى يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾

تحدّث الحق سبحانه وتعالى فى آية سابقة عن المبذّرين ، وحذّرنا من هذه الصفة ، وفى هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته فى الحياة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم فى المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندى ، وله علىّ أياد لا تُعد ، أى : أن نعمه علىّ كثيرة ؛ لأنها عادة تُؤدّى باليد ، فقال : لا تجعل يدك التى بها العطاء (مَغْلُولَةً) أى : مربوطة

إلى عنقك ، وحين تُقَيَّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفـاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

فـالنهى هنا عن كل البَسْط ، إذن : فـيُبـاح بعض البـسْط ، وهو الإنفـاق فى حدود الحـاجة والضـرورة . وبَسْط اليد كناية عن الـبَذْل والعطاء ، وهكذا يلـتقى هـذا المعـنى بمـعنى كل من بذَر ومـعنى بذَّر الذى سبق الحديث عنه .

فبذَّر : أخـذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحـدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهىّ عنه ، أما الآخر صـاحب الخبرة فى عمليـة البذْر فيأخذ حـفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشىء بالقدر الذى يسمح بتفلّـت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَرَ] .

وهذا هو حـدّ الاعتـدال المرغـوب فيـه من الشـرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقـد أتى هذا المـعني أيضـاً فى قـول الحق سبـحـانه وتعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

أى : اعتدال وتوسُّط .

إذن : لا تبسط يدك كل الـبَسْط فتنفق كل مـا لديْك ، ولكن بعض البَـسْط الذى يُبقِى لك شـيئـاً تدخـره ، وتتمكن من خـلاله أنْ ترتقىَ بحياتك .

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال فى الإنفاق ، وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثْرى حركة الحياة ، ويُسهم فى إنمائها ورُقيّها ، على خلاف القَبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة ، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ، ويعوق حركتها .

إذن : لابُدّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، ولابُدّ أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِى على شىء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقى به ، وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس .

فالمبذر والمسْرف تجده فى مكانه ، لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة ، كيف وهو لا يُبقِى على شىء ؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة ، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ أوضحنا أن وضْعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء .

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..(٩٥)﴾ [النساء]

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : أتى بفعل يُلاَم عليه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما ملُوم لتصرُّفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت ملُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظِّم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقى من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتِّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]